القسمُ الأوّلُ

ثانيا:

ابن خلدون ـ غير المتخصص فى فقه اللغة والنحو، يبدى «نظرات» تناقش

١ - يقول: (ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها فى التعليم):

(والسبب فى ذلك أن صناعة العربية إنما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصةً، فهو عِلمْ بكيفية لا نفس الكيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هى بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علمًا، ولا يحكمها عملًا مثل أن يقول بصير بالخياطة، غير محكم لملكتها. فى التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هى أن تدخل الخيط، فى خرت الإبرة، ثم تغرزها فى لفقى الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم تردها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين؛ ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل، ويعطى صورة الحبك والتثبت والتفتيح وسائر أنواعٍ الخياطة وأعمالها. وهو إذا طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئًا.

وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه، وآخر قبالتك بطرفه الآخر

وتتعاقبانه بينكما، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية، إلى أن ينتهى إلى أسفل الخشبة. وهو لو طولب بهذا العمل أو شىء منه لم يُحكمه.

وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة فى نفسها. فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل. وكذلك تجد كثيرًا من جهابذة النحاة، والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علمًا بتلك القوانين إذا سئل فى كتابةِ سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، ولم يُجِد تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربى. وكذا نجد كثيرًا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئًا من قوانين صناعة العربية.

فمن هنا يُعْلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية. وأنها مستغنية عنها بالجملة، وقد نجد بعض المهرة فى صناعة الإعراب بصيرًا بحال هذه الملكة، وهو قليل واتفاقى، وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم؛ فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمحصل له، قد حصل على حظ من كلام العرب اندرج فى محفوظه فى أماكن ومفاصل حاجاته، وتنبه به لشأن الملكة، فاستوفى فى تعليمها، فكان أبلغ فى الإفادة.

ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا، فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكه. وأما المخالطون

لكتب المتأخرين العارية من ذلك، إلا من القوانين النحوية، مجردة عن أشعار العرب وكلامهم؛ فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة فى لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه.

تعليق:

فى هذا النص.. ثلاث أفكار:

الأولى: أن الذى يجعل المرء المتعلم.. ماهرًا فى العربية هو قراءة كلام العرب الفصحاء القدامى، وسماعه، وحفظ بعضه، واستعماله.

الثانية: أن بعض النحاة.. يعرفون العربية صناعة نحوية، ولكن، إذا طلب من أحدهم كتابة سطرين.. فلا يحسن ذلك.

الثالثة: أن ملكة العربية.. مستغنية عن صناعة النحو بالجملة.

..أقول: **الفكرة الأولى**.. صحيحة، لأن اللغة تعرف، وتحصل ملكتها، عند طالب العلم بالمراس – بسماع اللغة الفصيحة، وقراءتها، والإقدام على التحدث بها. بيد أنى أرى أنه لا بد لمن جاؤوا بعد القرن الأول الهجرى، من تعلم مبادئ النحو، وكلياته، إلى جانب ممارسة اللغة على نحو ما سلف القول. وهذا.. ردٌّ على ما ورد فى الرقم الثالث. إذ ليس دقيقًا أن الملكة فى العربية تحصل، مع الاستغناء الكامل عن النحو بعد عهد السليقة.

– ولا ينهض دليلًا ضِدّ رأينا أن نُقّر أن قليلًا لديهم استعدادٌ عالٍ للفصاحة قد يحصلون ملكة العربية، من دون أن يتعلموا النحو. ومن هؤلاء فى العصر الحاضر – الشاعر محمود سامى البارودى الذى أحيا

ديباجة الشعر العربى كما كانت فى عصوره الزاهرة، وهو لا يعرف من النحو إلا القليل والكاتب المبدع إبراهيم المازنى الذى يعرف قليلًا من النحو، ليس أكثر. ما ذاك إلا لأن الأول قرأ وحفظ كثيرًا من الشعر الجيد - ولأن الثانى قرأ كثيرًا من النثر الجيد - إلى استعداد للفصاحة عند الاثنين.

- **والفكرة الثانية**.. صحيحة أيضًا ومما يذكر ولعله يصح شاهدًا عليها أن أمير قرطبة فى الأندلس، زار الجامع الذى كان يدرس فيه العالم اللغوى الشهير أبو على القالى (ت - ٣٦١) فنهض القالى ليرحب بالأمير «فَأُرْتِجَ» عليه-! هكذا تقول الرواية: بيد أنى أرى أن الاحتمال الكبير أنه لم يُرْتَجْ عليه (أى-لم يضطرب) وإنما القالى لم يمارس الكتابة الأدبية، أو المحاضرات الخطابية - فأصابه «الحَصَرُ» وليس الإرتاج - (والإرتاج هو الارتباك).

- وهذا.. هو شأن الذين يعرفون اللغة، فقهًا. أو نحوًا، ولكنهم لقلة مطارحة النصوص العالية، ولضعف الاستعداد للفصاحة، وللاقتصار على النصوص المصنوعة التى تعرض كأمثلة فإنهم لا يملكون القدرة على الكتابة الجيدة أو الخطابة العالية الفصاحة.

٢ - رأى غريب فى بلاغة الكلام عند ابن خلدون

- يمثله قوله بأن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى يقول:

(اعلم أن صناعة الكلام نظمًا ونثرًا إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى، وإنما المعانى تَبَعٌ للألفاظ وهى أصل فالصانع الذى يحاول

ملكة الكلام فى النظم والنثر، إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر، ويتخلص من العجمة التى رُبِّى عليها جيله، ويفرض نفسه، مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى، حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم وذلك أنا قدمنا أن اللسان ملكة من الملكات فى النطق، يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات، والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ، وأما المعانى فهى فى الضمائر، وأيضًا موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى؛ فلا تحتاج إلى تكلف صناعة فى تأليفها وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعانى. فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحد فى نفسه. وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه، باعتبار تطبيقه على المقاصد. والمعانى واحدة فى نفسها؛ وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه، على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده، ولم يحسن، بمثابة المقعد، الذى يروم النهوض ولا يستطيعه، لفقدان القدرة عليه، والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)[1].

(١) المقدمة، ١١١٠ - ١١١١.

٣ - ناقدان سبقا ابن خلدون:

– لقد سبق ابن خلدون ناقدان كبيران: أحدهما الجاحظ، عَمر[١] ابن بحر.

(ت – ٢٥٥) والآخر الإمام عبدالقاهر ابن عبد الرحمن الجرجانى (ت – ٤٧٤).

– كلاهما تحدث عن بلاغة الكلام. فالجاحظ يقول: (وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى [والشيخ هو أبو عمر الشيبانى]. والمعانى مطروحة فى الطريق، يعرفها العجمى والعربى، والبدوى والقروى. وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ. وسهولة المخرج، وكثرة الماء. وفى صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير)[٢].

– بيد أن قول الجاحظ (كما أرى) لا يعنى أن المعانى لا قيمةَ لها بقوله: (المعانى مطروحة فى الطريق) – وإنما يعنى أن (المعانى العامة) معروفة عند كل الناس، فكل يستطيع أن يقول، مدحًا لكريم: (أنت كالبحر، كرمًا)، ولكن، ليس كل متكلم يستطيع أن يقول كما قال المتنبى العظيم (ت –٣٥٤) فى مدح كافور الإخشيدى:

(قواصدَ كافورٍ، توارِكَ غيرِه ومن قصدَ البحرَ.. استقلَّ السواقيا)

لاحظ كيف أخرج المتنبى التشبيه (فى أصله) من التشبيه إلى الكناية.

---

(١) عمر.. أكتبها دون (واو) وأكتفى بوضع فتحة على العين، وقد كان (الواو) مع عَمر، له مبرره قبل أن يعرف الشكل، من أجل التفريق بينها وبين عُمر، أما بعد أن عرف الشكل.. فلم يعد من مبرر لوضع الواو فى آخر عمر.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ١٣١/٣ – ١٣٢.

فحماه من المباشرة بالتشبيه التى تجعل الهزة الوجدانية أضعف (فى مثل هذا الموطن، وليس دائمًا، لأن كل شىء يجود، إذا لاءم مكانه) وَحَوّله إلى الكناية التى هى أبعد غورًا من التشبيه هنا، وأكثر تأثيرًا فى الوجدان، عندما تصيب موقعها. فالكلام.. بدأ فى ظاهره مقارنة بين البحر والسواقى. بيد أن السياق يعيدك إلى أن المقصود هو وراء ذلك، وهو المقارنة بين كافور الذى يشبه البحر، وسيف الدولة الذى يشبه الساقية. وشتان ما بين البحر، وبين الساقية! ، ولهذا.. فالمعنى المقصود لا يصل إلى المتلقى، مباشرة، وإنما بعد شىء من التدبر. وهذا أدعى إلى المتعة، لأنه لا يوصل إليه إلا بما يشبه الاكتشاف الفجائى الذى يثير الاندهاش.

– فإذا.. أضفنا إلى ذلك أن المتنبى لم يأتِ بالمشبه به وَحْدَهُ وبصورة بسيطة، بل جعله تشبيهًا مركبًا عن طريق المقارنة بينه وبين ما هو أقل منه، فالمشبه به هو البحر، وقد وضع إزاءه الساقية، فبان الفرق واضحًا وضوح الشمس، فزاده ذلك عمقًا وتأثيرًا.

– أحسب أن هذا هو الذى أراده الجاحظ العظيم بقوله السابق.

والجرجانى يقول: (وإذا كان لا يكون فى الكَلِم نظم، ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوَهُ [وهو أن يتعلق الكلام بعضه ببعض، بسبب المعاني] وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شىء، ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته.. كان بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تَبَعٌ للمعنى فى النظم، وأن الكلم تترتب فى النطق بحسب ترتب معانيها فى النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتًا وأصداء حروف، لما وقع فى ضمير ولا هجس فى خاطر،

أنه يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأنه يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك. والله الموفق للصواب)[1].

– مـا سـبق يدل على أن الجرجانى.. لا يقـدم المعانى – من حيثُ هى معانٍ مجردةٌ من اللفظ – وإنما يقدمها من حيث هى مستخرجَةٌ من ذات المتكلم الألفاظ المناسبة لها. ولن يكون للمعانى هذه الأهمية لو كانت مجرد مَعانٍ عامةٍ، بل من حيثُ هى معانٍ شـعوريةٌ خاصةٌ، إذا أُحسن التعبير عنها أثرت فى نفس المتلقى تأثيرًا ممتعًا.

ومما يدلنا علـى ذلك أن الجرجانـى يقول، فى مـكان آخر، من الكتاب: (ومعلوم أن سـبيل الكلام سـبيل التصويـر والصياغة.. كذلك محـال، إذا أردت أن تعرف مـكان الفضل والمزية فى الكلام.. أن تنظر فـى مجرد معناه...)[2]. وهذا.. كلام موافـق لكلام الجاحظ الذى وافقه الجرجانى مرة أخرى فى موضع آخر، ودلل بكلامه[3].

نحـن نرى أنـه –هنا – يَنعى علـى من يقدم الشـعر – بمعناه – دون الألفـاظ، إذْ يقـول مثل هذا الذى يقـدم المعنى دون اللفـظ؛ (ما فى اللفظ لولا المعنى؟).

– وعلـى هذا.. فالجاحـظ والجرجانى.. يتفقان علـى أن الأدب: معنـى تفصيلـى وجدانى خـاصّ. عند كل أديب، ولكن لكى يحسـن المعنى ويحرك المشاعر والوجدان، فيُمْتع.. فلا بد من أن يحمله لفظ هو كِفاء له، يعبر عن النمنمات الصغيرة التى تتحرك فى الوجدان كما يعبر عن المعانى الكبيرة.

(١) الجرجانى، دلائل الإعجاز، ٥٥ – ٦٥.

(٢) المرجع السابق، ٢٥٤ – ٢٥٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ٢٥١.

٤ - رأى ابن خلدون بعيد عن الصواب:

– أما ابن خلدون (وهو ليس ناقدًا متخصصًا.. كالناقد الذى له مؤلف فى النقد، وإنما هى نظرات يبديها) فقد جاء برأى غريب لا نقره عليه – يخالف مخالفة المعاكسة رأى الجرجانى الذى يقول –كما سلف – «إن اللفظ تَبَعٌ للمعنى فى النظم. وإن الكلم تترتب فى النطق بسبب[1] ترتب معانيها فى النفس». فأنت ترى أن ابن خلدون من بدء كلامه عن صناعة النظم والنثر.. يقول: أعلم أن صناعة الكلام، نظمًا ونثرًا، إنما هى فى الألفاظ – لا فى المعانى – وإنما المعانى – تبع – لها، وهى أصل.

– وهذا.. رأى قاصر. لأن الإنسان حتى فى العهود البدائية كان يقوم المعنى فى نفسه، ثم.. يبحث له عن «صوت»، أو – إشارة، أو حركة. هذا قبل أن يكون أصواتًا مركبةً. ثم.. أخذ يتحسس إيجاد صوت مركب للتعبير عن المعنى (وقد يكون المعنى إحساسًا، وشعورًا).

وعندما ترقّى الإنسان، وأصبحت لديه لغة أخذ المعنى يجذب اللفظ، أو – ما ينبثق المعنى فى النفس أو العقل حتى ينجذب إليه اللفظ الذى يلائمه – خاصةً عند الأدباء، شعراء، وناثرين، لأنهم أصحاب إحساس مرهف.

– وعلى هذا.. فقوله: (...والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ. وأما المعانى فهى فى الضمائر). إن كونها فى الضمائر (أو فى العقل والوجدان) لا ينفى أن الألفاظ المناسبة لها عند الأدباء تنجذب لها لتعبر عنها، عندما تبدأ المعانى تتقلقل فى العقل والوجدان.

---

(١) يقصد: (بسبب) معنى (بحسب) أو لعلها (بحسب) وإنما هذا من خطأ النساخ.

– وقوله: (...أيضًا.. المعانى موجودة عند كل واحد، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى. فلا تحتاج إلى تكلف صناعة فى تأليفها). وهذا.. فهم سقيم لقول الجاحظ، فالجاحظ يعنى بالمعانى– المعانى العامة – كما سلف القول – بيد أن المعانى العقلية والوجدانية الدقيقة التى لا يستطيعها كل أحد.. ليست مقصود الجاحظ بعبارته التى أوردناها قبل صفحات.

– ثم.. شبه ابن خلدون المعانى بالماء، وشبه الألفاظ بالأوانى التى يغترف بها الماء، قال: (...وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها، لا باختلاف الماء!).

– وهذه مقايسة غريبة–!، فليست المعانى كالماء، لأن الماء مادة «بسيطة» فنيًا، لا تركيبًا كيميائيًا، لها وصف ثابت لا يتغير. أما المعانى.. فهى «متولدة» باستمرار، وما فى نفس زيد منها يختلف عما فى نفس سعيد (أعنى المعانى العقلية الدقيقة، والمعانى الوجدانية الآخذة شكلًا فى كل نفس يختلف عما هو موجود منها، فى أى نفس) وما فى حضارة منها يختلف عما فى حضارة أخرى، على أن الاختلاف لا يعنى التناقض، ولا التنافى، وإنما يعنى أنها.. كثيرًا ما تكون صورًا باتجاه واحد، ولكن، لكل صورة خصوصيتها. بل المعانى كأنواع من السوائل الملونة – كل سائل يختلف فى لونه عن الآخر – سواء – أوضعت فى زجاجات ذات لون واحد أم أكثر من لون.

– أما أن الألفاظ كالأوانى.. فمقايسة غير دقيقة، لأن الآنية – كل منها يصلح لكل سائل – ماءًا كان، أو عصيرًا، أو كان قطرانًا،

أو سُمًّا... وليست كذلك الألفاظ، فاللفظة.. لها معنى، أو – معانٍ تقوم باتجاه واحد. فإذا استعملها أحد بغير معانيها، أو ما يمكن أن يقاس على معانيها، وبنفس اتجاه هذه المعانى (أو –عكس معانيها). عُدَّ كلامه خطأ، وعِيبَ عليه ذلك، إذا تكرر وكثر.

– أما قوله بأن الضعيف فى اللغة لا يستطيع أن يعبر بتعابير مؤثرة.. فهو قياس لم يدرك الفرق بين الشخص الذى يمتلك اللغة، والشخص الذى لا يعرف إلا قليلًا من ألفاظها، لأن الأول يستطيع أن يكسوَ معانيه بألفاظ مؤثرة، أما الآخر فلأنه فقير بالألفاظ فهو فقير بالقدرة على أن يكسوَ معانيه بألفاظ، حتى وإن لم تكن مؤثرة. بل – ابن خلدون نفسه: أفضَلَ غيره بألفاظه – بالدرجة الأولى – أم بفكره : بمعانيه؟

٥ - رأى ابن خلدون فى الشعر الإسلامى:

– رأى ابن خلدون فى تفوق الشعر فى الإسلام على الشعر فى الجاهلية رأى مرجوح إذ هو يرى أن الشعر فى الإسلام، تفوق على الشعر فى الجاهلية. ويتضح هذا من قوله الآتى:

(ويظهر لك من هذا الفصل، وما تقرر فيه سرّ آخر[1]، وهو إعطاء السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية فى منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان ابن ثابت وعمر ابن أبى ربيعة والحطيئة وجريرًا والفرزدق ونُصيبًا وغيلانَ وذا الرُّمَّة والأحوص وبشارًا، ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية، فى خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم

(١) العبارتان الأوليان: تشيران إلى كلام سابق، وهو أن ملكة اللغة تكون جودتها تبعًا لجودة المحفوظ، ومثل ذلك.. الشعر، والأدب – عامة.

للملـوك – أرفـع طبقة فى البلاغة بكثير من شـعر النابغة وعنترة وابن كلثـوم وزهير وعلقمـة ابن عبدة وطرفة ابن العبـد، ومن كلام الجاهلية فى منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السـليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث. اللذيْن عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها وَلَجتْ فى قلوبهم ونشـأت على أسـاليبها نفوسـهم؛ فنهضت طباعهـم وارتقـت ملكاتهم فـى البلاغة عن ملكات مـن قبلهم من أهل الجاهليـة، ممن لم يسـمع هذه الطبقة ولا نشـأ عليهـا؛ فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم أحسـنَ ديباجةً وأصفى رونقًا، وأرصف مبنىً وأعدل تثقيفًا، بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة. وتأمل يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة[1].

– فى هذه الكلمة ثلاثة آراء:

– **الأول**.. أن شعر الإسلاميين أعلى طبقة من شعر الجاهليين.

– **الثانى**.. السبب فى ذلك أن الإسلاميين.. ولج إلى نفوسهم القرآن الكريم والحديث الشـريف وهمـا أعلى طبقة مما تلقـاه الجاهليون عن آبائهم من شعر، ونثر.

– **الثالث**.. أن ترسـل الإسـلاميين وخطبهم.. أعلى فى البلاغة من ترسل الجاهليين وخطبهم.

– أقـول: هـذه الآراء.. ثالثهـا صحيح. أمـا الأول والثانى.. فغير صحيحين. وندلل على هذا بما يأتى:

---

(١) المقدمة، ١١١٤ – ١١١٦.

– قوله بأن شـعر الإسـلاميين أعلـى طبقة من شـعر الجاهليين – لا يسنده واقع شعرهم، ومن أبرز الإسلاميين – حسان بن ثابت – رضى الله عنه (ت٥٤) ثم.. عمر بن أبى ربيعة – رحمه الله – (ت – ٩٣).

– فحسان اكتملت موهبته، وهو فى الجاهلية، فقد دخل الإسلام وعمره كان سـتين سنة، فكانت موهبته آنذاك قد «تحوصلت» على قيم الجاهلية والتشكيل الفنى للشعر الجاهلى. ولهذا.. فقد كان الرجل يمتاح شعره، فى الإسـلام من عقله، وشعوره الواعى لا من موهبته الفنية (المتحوصلة) التى لم يكن بإمكانها أن تصوغ الجديد من المعانى بتشـكيل فنى نابع من لغة الإسلام، وهى لغة القرآن. والإسلام لم يأتِ بكثير فى التشكيل الفنى، لأن الإسـلام دعوة دينية، والدعوة الدينية – أيًا كانت – يناسبها «الوضوح»، والوضوح يأتى به النثر، لا الشـعر، لأن النثر لغة العقل – الواضح – أما الشـعر.. فلغة الوجدان –الطامح – أما إذا قُسِـرَ الشعر ليقول شيئًا مباشرًا فى الدعوة.. فإنه يأتى واضحًا، كوضوح النثر. ومثل هذا الشـعر هو نظم، بالدرجة الأولى إلى التاسـعة، وشـعر بالدرجة العاشرة فقط[1]، ولأن السبك القرآنى لا يُقلَّد كما سـنعرف تاليًا... وهكذا كان شـعر حسان فى الإسلام – كان معانى عقلية منظومة بوزن وقافية – وليست شعرًا عاليًا.

٦ - الإسلام لم يأتِ بكثير فى التشكيل الفنى:

ومما يدلنا على أن الإسـلام لم يـأتِ بكثير، فى مجال التشـكيل الفنى.. ثلاثة أشياء:

(١) انظر: كتابى: (منابع الشعر – ومكانة الشاعر)، ٢٢–٢٥، عمان، جمعية عمال المطابـع التعاونية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ففيه تفصيل عن «حوصلة» الوجدان الشـعرى، مطبقًا على الشاعر حسان بن ثابت.

الأول: أن الشعر الجاهلى (فى المعلقات – خاصةً – وفى المجموعات الشعرية – كالأصمعيات والمفضليات فيما جاء بهما من الشعر الجاهلى) كان بلـغ الغاية فى النضج، والتشـكيل الفنى وصحة الطبع واسـتقامة المعنى، فى مجال الشعر الوجدانى[1].

والثانى: ما أسـلفناه.. آنفًا، وهو أن الإسـلام دعوة دينية، تنشـد الوضوح، شأنها شأن كل الدعوات الدينية، والأيديولوجية، والفكرية.

والثالث: أن الشعراء الكبار الذين ذكرهم ابن خلدون – الذين كانوا فى العهد الأموى – كجرير (ت – ١١٤)، والفرزدق (ت – ١١٤)، والأخطل (ت – ٩٣) قـد عـادوا إلى قيـم الجاهليـة – الفنية (= التشـكيل الفنى الجاهلى) يستجلونها، ويبدعون شعرهم من خلالها، فقد صارت «نسيج» شعرهم. بل – إن القيم الأخلاقية التى أوردوها، فى شعرهم، تتفق كثيرًا مع قيم الجاهلية الأخلاقية. بل – سقطت دونها، أحيانًا. ودليل ذلك أن «النقائض» بين جرير، والفرزدق.. انحدرت بالأخلاق انحدارًا سـحيقًا، حتـى إننا لم نجد من فعـل فعلهما، وبنفس الكثافة، فى الجاهلية –!، بل – لو أن مسـتعربًا لم يعرف أن هذين الشاعرين إسلاميان – أمويان.. لاعتقد اعتقادًا جازمًا أنهما من شعراء الجاهلية الأولى!.

---

(١) كثيرون يسمونه (الشعر الغنائى) وهذه تسمية مضللة، فالشعر الوجدانى لم ينشأ من أجل أن يُغَنَّى به، وإنما نشـأ من أجل أن يعبر عن المشـاعر والأحاسيس والعواطف. (وهذه تجمعها كلمة الوجدان) فهو شـعر (وجدانى) – لا غنائى. واستعمال بعضِهِ للغناء –حقًا – لا يخرجه عن صفته الوجدانية إذْ لم يُغَنَّ بأكثر من خمسـة بالمئة منه (=٥٪). ومن حيث قضية النضج فى الشـعر الجاهلى.. فانظر: طه حسـين فى كتابه – حديث الأربعاء، الجزء الأول. فتقرير نضجه واضح، فى هذا الجزء من الكتاب.

– أرجـو أن تكون هـذه الأدلة الثلاثـة.. كافية لدحـض رأى ابن خلـدون. لأن ابـن خلـدون – كما قلنا فـى كلام سـابق – ليس بناقد محترف (متخصص) –كالجاحظ، أو –الحسـن ابن بشـر الآمدى (ت– ٣٧٠) – صاحـب كتـاب (الموازنة بين الطانيـين) – أو – كالإمام عبد القاهر الجرجانى. فهو (=ابن خلدون) يطلق أفكارًا فى مجالات شـتى، بعضهـا يصيب، وبعضها يخطئ، ومما أخطأ – فيه – منها حكْمُهُ هذا على شعراء الجاهلية، وشعراء الإسلام.

٧ - سببُ بُعْدِ رأى ابن خلدون عن الصواب:

– وسـبب بعد رأى ابن خلدون هذا.. عـن الصواب (إضافة إلى أنه ليس ناقدًا متخصصًا) أنه شـأنُهُ شـأنُ المفكرين والفلاسفة الذين يُنَظِّرون – لـلأدب، بيد أنهـم ينكلون عن التطبيق – خلافًـا للنقاد المحترفين – والتطبيـق هـو الذى يُنبّهُ صاحبَ الرأى –كثيرًا – إلى أن رأيه صواب أم خطأ. ولذا.. فهو لم يأت ولا بمقطوعة واحدة من شعر حسان، مثلًا، بعد الإسـلام، ويقارنها –تطبيقًا – مع مقطوعة لأى شـاعر من شـعراء المعلقـات. وعندئـذٍ.. يبين له الفرق بين صفاء الطبـع وصدق القول فى الشعر وبين شعر الإسلاميين الذى ينزل –عنه – درجة.

– فالتنظير.. بسيط بيد أنه قد يصح، وقد لا يصح. ولكن التطبيق.. معقد، يحتاج إلى مهارات شـتى، تحتـاج إلى موهبة، وهذه المهارات.. قلما يمتلكها من ليس متخصّصًا وموهوبًا.

– وإن قـول ابـن خلدون. فى نهايـة رأيه: (وتأمل يشـهد بذلك ذوقـك. إن كنت من أصحـاب الذوق والتبصر بالبلاغـة) – قول يهبط عن مستوى فكره، لأن قوله هذا – كما يقول أصحاب المنطق – مصادرة

على المطلوب. فهو يريد أن يحمل الناس على موافقته على رأيه – لا عن طريق التطبيق، أى – لا عن طريق التحليل والتدليل، وإيراد المثل، والمقارنة فالإقناع – وإنما عن طريق وَصْم المتلقى بأنه ليس من أهل الذوق، والتبصر بالبلاغة، إن لم يوافقه على رَأيه.

– وهذا.. ليس أسلوبَ مُحاجّة العلماء الذى يقوم على الإقناع، لا على الإرهاب الفكرى. فما كان أجدرَ بابنَ خلدون – المفكر، المحلل – أن يترفع عن هذا النمط من الأساليب التى يمارسها العوامّ، ومن لم يوهبْ ملكة التحليل هذه الموهبة التى تبرز فى معظم مقدمة ابن خلدون – يرحمه الله – ولكن، لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، ثم.. (أى الرجالِ المهذبُ!).

عمر - ابن أبى ربيعة:

أما عمر ابن أبى ربيعة.. فهو ولد فى الإسلام، وعاش فيه (ت – ٩٣). وهو أعلى كعبًا، فى شعره، من شعر حسان –فى شعره الإسلامى (أعنى شعر حسان)، خاصةً – بيد أن عمر شاعر غَزَلٍ، ونشأ فى بيئة «مترفة» والغزل، والترف يرفّقان عواطف الشاعر ويبعدانه عن الاعتناء بشعره[1] (عناية شعورية، ولا شعورية) –على غير ما يعتنى الفحول بشعرهم. أولئك الذين كانوا يحسون أن وصولهم إلى العيش الرغيد لن يكون بغير

(١) انظر: كتابى (رائية ابن أبى ربيعة. فى حبيبته –نُعْم)، عمان، دار البداية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. القسم الثانى (الجوانب الإيجابية)، ٣٥ – ٨٧، والقسم الثالث (الجوانب السلبية)، ٨٩ – ١٣٢، فالشاعر ابن أبى ربيعة للأسباب التى ذكرناها عنه – لم يعتنِ بتجويد شعره، فبين القسم الثانى – والثالث.. تناقضات، وأخطاء فى استعمال الألفاظ، من حيث إنها لا تناسب المعنى الذى جاءت له، وإن كان اللفظ فى ذاته فصيحًا (لأن عمر ممن يحتج بشعره). ومن حيث الانحراف بالمعانى عن وجهها.

تجويد شعرهم، ليكون نافقًا عند الخلفاء، والأمراء. والوزراء والقادة. وليكون سائرًا بين المثقفين. وهذا.. إحساس لم يُعانِ منه عمر، ومن الدليل على ذلك – الطريف، في نفس الوقت.. أن حاكم المسلمين، في أيام عمر هذا – عبدالملك ابن مروان.. الْتقى بالشاعر، فقال عبد الملك له: (لماذا لا تمدح في شعرك الرجال؟) فقال له: (يا أمير المؤمنين، إنني أمدح النساء–!) يعني يتغزل بالنساء. والغزل.. ، من باب التوسع – هو في معنى المدح، هو مدح لأنه إطراء لمحاسن المرأة. والمدح – على حقيقته – هو إطراء لمحاسن الرجال. ولكنْ، إطراءٌ للمحاسن العالية من مدح بالكرم، والشجاعة، والحكمة، والمروءة..الخ – وربما أطرى الشاعر محاسن جسدية للممدوح.

– إذن.. حسان، في شعره الإسلامي، وعمر في جميع شعره يأتي دون فحول الجاهلية، على رقة شعر عمر، وتأثيره الوجداني بشكل عام.

– أما رأى ابن خلدون الثاني.. وهو أن سبب علوّ شعر حسان – وعمر – بزعمه – إنما هو ولوج لغة القرآن والحديث الشريف إلى مكان الملكة اللسانية في ذواتهم (ومثلهم.. من جاؤوا، بعدهم من الإسلاميين، والعباسيين) – فهو رأى –أراه – فاقدًا لما يتصف به ابن خلدون من القدرة – التحليلية – العالية، ولكن، غير الموجَّهة كما أسلفنا القول.

– فالقول بأن القرآن – خاصةً – أثر في أساليب الأدباء شعراءَ، وناثرين، منذ أيام حسان، حتى نهاية العصر العباسي الأول بل وحتى تقوم الساعة – فقول.. ينقضه التحقيق والتحليل. أقول، بدءًا: القرآن لا «يقلَّد». لا لفظًا في جملته، ولا جملةً في تعبير، ولا أسلوبًا في

نـصٌ. ولا طريقـةَ وصلٍ بـين فقرة وفقرة، وهذا الأخـير هو ما سماه - البقاعى - (ت-٨٨٥) - (-نظم الدرر فى تناسـب الآيات، والسـور). فى كتابه الموسـوم بهذا الاسـم، ونحن قرأنا وحفظنا قـول الله تعالى: (﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسـراء: ٨٨]. وقرأنا وحفظنا قوله تعـالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤].

- فأنـت ترى أن الله تعالى تحـدّى فصحاء خلق الله بالعربية، وهم قريـش.. أن يأتوا بمثل القرآن. وفى آية تحداهم أن يأتوا بعشـر سـور مفتريـات (لأنهم رَمَوْا القرآن بأنه مفترىً[1] ثم.. انتهى بهم فى التحدى إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن.. فعجزوا..!!.

٨ - ما لا يقلّد لا يمكن مجاراتُهُ:

- والشـىء الذى يقره العقل والواقع أن الشىء الذى «لا يقلد» كلامًا كان، أو كان إحيـاءً للموتـى.. لا يمكن «مجاراته»، ولا الإفادة منه فى جانـب التحدى منه. ذلك.. لأنـه معجز، والمعجز سُمّى.. معجزًا، لأن الجـن والإنس (بَلْهَ غيرَهما مـن المخلوقات غير العاقلـة) يعجزون عن مجاراته، أو مباراتـه، أو الإتيان بمثله، وخاصةً فى المعجزات الكبرى التـى تتصف بالديمومة. ولو أنهم يسـتطيعون أن يأتـوا بمثله.. لما كان معجزًا سـرمديًا. بل لو كانوا يسـتطيعون أن «يقلدوه» لمـا عاد معجزًا.

(١) اقرأ فى سورة هود، ١٣.

والذى لا يقلد.. لا يستفاد من بُنيَتِهِ، ولا من كيفية حدوثه، وإلا.. فهل استفاد الخلق من إحياء الله تعالى للموتى على يد سيدنا عيسى -عليه السلام - بأمره تعالى المباشر. كما كان فى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾[1] [البقرة: ٢٥٩].

- النتيجةُ.. إذن - أن القرآن الكريم يمكن الاستفادة من معانيه. وأحكامه، ومن مبادئه، وتوجيهاته، وروحه، ويمكن الاقتباس منه. ولكن، يستحيل تقليده، واستحالة تقليده تعنى استحالة استفادة البشر من أسلوبه، فى الجملة، والفقرة، وتتابع موضوعاته. ومن منهجه فى عرض قضاياه. إن البشر أقل من أن تتطاول قاماتهم إلى مثل هذا.

---

(١) أحد الأستاذين المحكمين لهاذا البحث، (ليقدَّم فى ندوة..) عَدَّ حديثى عن إعجاز القرآن -هنا - (استطرادًا). والحق أن ثمة فرقًا كبيرًا بين الاستطراد - والتوضيح، الاستطراد هو: انتقال من الموضوع الذى يعالجه الكاتب إلى موضوع آخر. لا صلة مباشرة له به كما كان يفعل الجاحظ العظيم. إذ كان ينتقل -مثلًا - من الحديث عن -الحمام- إلى طرفة عن شيخ سمع صوتًا خلف الباب فظنه سارقًا، فأخذ يهدده بالولوج إليه، إذا لم يخرج. ونفاجأ أن الذى خلف الباب كان.. ماذا؟ كان.. كلبًا!!

وللجاحظ عذره وتوضيحه لما كان يقوم به من استطراد يفعله وهو واع لما يفعل. أما ما قمت أنا به، فى مثل حديثى هنا -فى المتن - عن إعجاز القرآن، وأن ليس من أحدٌ يستطيع أن يستفيد من (سبك) القرآن، عبارات، وجملًا، وآيات.. لأنه لا يستطيع أحد أن (يقلده) فليس هنا استطراد وإنما هذا (توضيح) لا يُستغنىَ عنه، لتمام الفكرة، فابن خلدون يزعم أن شعر صدر الإسلام أعلى -فنيًا - من الشعر الجاهلى وعلة ذلك عنده استفادة الشعراء من أسلوب القرآن. فلكى ندحض هذا الزعم، فلا بد مما أسلفنا من التوضيح ولن تتضح الفكرة دون الحديث عن إعجاز القرآن للتدليل على انتفاء القدرة على تقليده.

٩ - لغة رسولنا العظيم:

– معلوم لدى الكثرة الساحقة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أفصح العرب – وأنه أوتى جوامع الكلم – كما وُصِفَ بيانه الرفيع[1] – وهذا.. أمر تقبله العقول والفطر السليمة. لأن رسولنا خاتم الأنبياء. وأوتى القرآنُ الكريم – المعجز – تنزيلًا من ربه تعالى. فلا غرابة فى علو فصاحة الرسول. فلا تقبل العقول أن يكون النبى الذى تَنَزَّلَ عليه هذا القرآن – الغايةُ فى الفصاحة – إلا.. فصيحًا. أولًا.. ليتواءم مع القرآن فيفهمه. فيبلّغه للناس. ولا يعقل أن رجلًا عَيِيًّا مثلا – وحاشا رسولنا – يتفاعل مع القرآن. لأنه لا يستطيع فهمه – بَلْهَ.. أن يقدر على تبليغه للناس.

– وثانيًا.. لأن الرسول العظيم كان يخاطب أعلى الناس. فصاحة. بالعربية. فلا يعقل أن يتجاوب الناس مع داعية. هو أقلّ منهم فصاحة. وليس فى طبائع البشر أن يُسْلم القوى قياده للضعيف – سواء أكانت القوة قوة مال. أو منصب. أو جماعة. أم كانت قوة لغة. فقوى المال لا يسلم قياده لضعيف المال (= قليل المال) والموظف الكبير لا يسلم قياده للموظف الصغير. وكثير العِزوةِ لا يسلم قياده لقليل العزوة. والأفصح لا يسلم قياده للأقل فصاحة. هذا فى كل أمر...

– وثالثًا.. لكى تخلد أقواله. ويتناقلها الناس – خاصةً أن كثيرًا منهما هو جزء من الدين سواء أكان هذا الجزء تبيينًا للدين. أم كان اجتهادًا فى الدين.

– إذن.. شىء طبيعى. تستجليه العقول أن يكون رسولنا العظيم.. أفصح العرب.

---

(١) صحيح البخارى. تعبير/ ١١.

١ – ومع هذا.. فكلام الرسول العظيم.. نازل عن كلام الله تعالى درجتين: درجةً هو حال فيها، ودرجةً «فراغًا» تفصل بين كلامه وبين كلام الله تعالى – المعجز[1]. كلام الله تعالى.. معجز. وكلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – مُبينٌ.

٢ – من ناحية أخرى، عندما نقارن كلام الرسول العظيم بالشعر الرفيع.. فإننا نجد أن كلام الرسول العظيم.. يتفوق على الشعر الرفيع بإحدى عَشْرَةَ خاصيةً، سواء أكان الشعر هو الذى جاء قبل الوحى –أم كان الذى جاء بعد الوحى، فَصّلنا هذه الخاصيات، فى كتابى (منابعُ الشعرِ – ومكانةُ الشاعِر)[2].

– وإنك لترى أن كون كلام رسول الله يعلو على الشعر الرفيع بإحدى عشرة خاصية. (وهو يعلو على النثر الفنى بمثل ذلك، أو أكثر – وعلى النثر العلمى بأكثر منها.. بوضوح).. فهذا.. يعنى أن الشعر (ومثله النثر) لم يستطعْ أن يستفيد من (بيان) كلام الرسول الأفصح، إذ لو استفاد من بيانه.. لما كانت المسافة، فى الفصاحة، بينهما بهذه السعة–!.

– وهذا.. أمر يقبله العقل، لأن كلام الرسول.. مُضاءٌ بأنوار النبوة – كما أن القرآن.. مضاء بأنوار الله تعالى. ومع قيام فرق كبير بين أنوار الرسول الكريم، وأنوار الله العظيم غير أن كلًا من هذه الأنوار.. لا تدانيها قناديل النور التى تضيء كلام العباقرة من البشر شعراء، وناثرين.

---

(١) انظر: تفصيل ذلك فى كتابى: (منابع الشعر. ومكانة الشاعر)، ٧٠ – ٧٢ (مرجع سابق).

(٢) انظر: المرجع السابق، ٧٠ – ٧٤.

١٠ - تَرَسُّلُ الإسلاميين - وخطبهُم:

- خلافًا لما قلناه بحكم سابق، عن رأى ابن خلدون المرجوح فى شعر الإسلاميين والجاهليين.. فإن الرجل كان مصيبًا فى رأيه عن تَرَسُّل الإسلاميين وخطبهم أنها.. أعلى مما كان للجاهليين.

- ذلك.. لا لأن القرآن الكريم، والحديث الشريف - قد صقلا نثرهم كما يرى ابن خلدون، فإذْ لم يصقلا الشعر لم يصقلا النثر كذلك - لا بل لأن الإنسان، فى مراحل تحضره الأولى.. تكون لغته شعرًا، أو تكون أقرب إلى الشعر. فحتى لو قال أو كتب كلامًا - غير موزون فإن عبارته إن لم تكن شعرية.. كانت (شاعرية). أى: كان التأثير الوجدانى فيها كبيرًا. لأن الإنسان، فى بدء تحضره يكون وجدانه (أو - فطرته، وعاطفته، ومشاعره، وأحاسيسه) هو النامى والوجدان.. لغته ليست الوضوح والمنطق الخارجى. وإنما هى اللغة المؤثرة المحركة لذات الإنسان الشاعرة، أو العاطفية.

- أما عندما يرقى فى سلم التحضر.. فإن وجدانه يتراجع. بعض الشيء، لكى يفسح المجال إلى العقل الذى قطع مرحلة جيدة. فى النمو وفراغُ - الذات البشرية - حجمُهُ واحدٌ، (قد يتسع مع التدريب، قليلًا) ولذا.. فلا يتسع هذا الفراغ لوجدان كثيف، ولعقل مُنيف، فلا بد من أن يتراجع أحدهما أمام نمو (الآخر)، لكى يكون هذا (الأحد)، كما هو عند معظم الناس، فى المستوى العادى، ولكى يُضحَى هذا الآخر فوق ما هو عند معظم الناس - وأكملَ. إن فراغ الذات شبيه بالإناء: إذا ملأته إلى ثلثيه بالعسل، مثلًا، فلا تستطيع أن تضيف فيه، ثلثين آخرين من الحليب، فلا يتسع إلا إلى ثلث آخر، من الحليب.

– هذا.. شـأن عقول المشـاهير. ولذا.. فإمّا أن يكون العبقرى شاعرًا كبيرًا – أو ناثرًا كبيرًا. أما الذين يحملون أنفسهم على أن يكونوا شعراء كبارًا، وناثرين كبارًا.. فغالبًا.. لا يكونون هؤلاء الشعراء الكبار ولا أولئك الناثريـن الكبار . لأن حمل النفس على الإبداع فى الشـعر، وفى النثر – كهذا الرجل الذى يتزوج اثنتين، ثم.. يحاول أن يحمل نفسـه على أن يبذل من ذات نفسـه لكل واحدة منهما – وكأنه زوج واحدة – فإنه بذلك.. يحاول شيئًا من المستحيل.

– ولهذا.. فشـعراء العرب –اليوم – وربما شـعراء العالم – هم دون نظرائهم فى الموهبة، قبل حين، لأنهم يمارسـون الشعر، والنثر معًا. إن شعراء الجاهلية، وشـعراء القرون الأربعة الأولى، فى الإسلام – وشعراء مطلع القرن العشرين – مثل أحمد شوقى وحافظ إبراهيم – أرفع صياغةً وأسلوبًا من الشعراء المحدثين. بيد أن المحدثين أقرب منهم إلى الاهتمام بالفكر، وبالوعى السياسى والاجتماعى.

١١ - النثر لغة العقل:

– وبما أن النثر.. لغة العقل. والعقل بدأ ينمو –بخطوات سـريعة – بعد بزوغ فجر الإسلام. ولذا.. فالشىء الذى يتماشى مع طبائع الأشياء، ومع قوانين الأشياء.. أن يكون الترسل والخطابة، ثم.. الكتابة النثرية.. أوسع وأغنى، وأنضج، وأقربَ إلى الإفصاح عن أفكار العقل – مما كانت عليه فى الجاهلية.

– ولكـن، لا علاقـةَ للقـرآن، ولا الحديث، بما انتهينـا إليه فى (الخطابـة – والكتابـة الفكرية) مـن غنىً وعمقٌ من جهـة التأثير فى الصياغة والأسلوب. بيد أن تأثير القرآن والحديث، فى التطور العقلى،

ونمو الأفكار، وتنوع الموضوعات.. كان عظيمًا، فعليهما، بالدرجة الأولى -إلى الثامنة.. قامت الحضارة الإسلامية.

- أما الدرجتان الباقيتان.. فكانتا بتأثير الحضارة اليونانية، والفارسية، والرومانية، والهندية. وإن بعض هاتين الدرجتين كان معوقًا لحركة الإسلام الصاعدة. ومن هذا المعوق.. الفلسفة اليونانية، والمنطق اليونانى - اللذيْن نبتا من حضارة مُلْحدة، فأدّيَا ببعض الفرق الإسلامية - كالمعتزلة - إلى الانحراف عن الحق، وذلك.. بتقديم العقل على النقل. مع أن العقل هو الجزء، والنقل هو الكل، العقل.. أداة -فى حقيقته - يُفترَضُ أن يعمل بتوجيهات النقل - لكى لا يضل-، أى - بتوجيهات الفكر الكلى. لأن العقل الجزئى لا يهتدى إلى بعض الحقائق إلا بتوجيه الفكر الكلى، مثلا الصلاة لا يستطيع العقل الجزئى أن يعرف عددها فى اليوم، وعدد ركعات كل صلاة إلا بتوضيح من الفكر الكلى (والفكر الكلى هو القرآن)، ولا يستطيع العقل الجزئى مثلا: أن يعرف لماذا لا يصح أن يجمع الرجل بين الأختين - لولا حكم الفكر الكلى[1].

الخلاصة

١ - رأى ابن خلدون بأن الشعر فى الإسلام كان أرفع من الشعر فى الجاهلية رأى خاطئ، ولا نستغرب أن يكون خاطئًا، لأن ابن خلدون ليس ناقدًا محترفًا، وإنما هو صاحب نظرات، فليس له، ولا كتاب واحد فى النقد، بل إن نظراته النقدية هذه لم يدعمها بأمثلة تطبيقية من الشعر الجيد - فى نظره-، والشعر الردىء.

(١) تفصيل - الفكر الكّلى، والفكر الجزئى - والعلاقة بينهما، فى الجزء الأول من كتابى [العصمتان] - مخطوط. وكذلك، فيه تفصيل انحراف المعتزلة عن جادة الصواب.

٢ – رأيــه أن القرآن والحديث.. صقلا لغة الشــعر والنثر.. تعترضه كل الأدلة التى أتى بها التحليل الســابق. فهو رأى – جُزافيّ – لا يقوم على تبصر.

٣ – أمــا النثــر الفنــى فقــد ترقى فى الإســلام عمــا كان عليه فى الجاهلية، لا بسبب لغة القرآن والحديث –كما بينا أسباب هذا النفى، خلال البحث – وإنما ترقى بعوامل طبيعية، أى: بســبب نمو الحضارة الإســلامية، بفضل القرآن الكريم، والحديث النبوى الشــريف والروافد الأخرى. والله تعالى أعلم.

ooo